نقد أدونيس للموروث العربي ومستلزمات التحوّل
- قراءة استنباطية في الثابت والمتحوّل –

Adonis's Criticism of the Arab Heritage and the Requirements of
- A Deductive Reading of the Constant and the Variable -Transformation

د.حكيم دهيمي

قسم اللغة العربية ، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف مسيلة(الجزائر)

hakim.dehimi@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2024/10/31	تاريخ القبول: 2025/02/03	تاريخ النشر: 2025/03/15

ملخص البحث:

يرصد هذا البحث الأسس التي قام عليها نقد أدونيس للموروث العربي الإسلامي، في دراسته: الثابت والمتحول بحث في الإبداع والإتباع عند العرب، ويستنبط مستلزمات التحوّل عنده، ويقف على أهم المصطلحات المشكّلة لجهازه المفاهيمي في خطابه النقدي.

الكلمات المفتاحية:

أدونيس- الثابت- المتحول- النقد الحضاري- الوعي- الإبداع- الإتباع

Abstract:

This research discusses the foundations on which Adonis' criticism of the Arab-Islamic heritage is manifested through his study: "The Constant and the variable, a study of Arab creativity and imitation, and is also interested in the requirements of transformation and the analysis of the terminology constituting his conceptual resource of his critical discourse.

Keywords: Adonis- the constant-criticism-consciousness-creation-imitation-variable

توطئة:

الحديث عن نقد الموروث الحضاري في ظلّ الرّاهن العربي الذي تطبعه حركة جماهيرية ثائرة، لم يسبق لها نظير على الأقل في التاريخ المعاصر، و أثر ذلك على مسار التغيّرات الاجتماعية والسياسية والثّقافية و"الجيوستراتيجية" للمنطقة العربية، وتزامن ذلك كلّه مع طبيعة التوجّه الثقافي الغربي وإفرازات الفكر العولمي، يعد أكثر من ضرورة لإيجاد زوايا تموضع جديدة تمكنّ من فهم المشكلة بكل أبعادها، وتفتّح الوعي على كل التدّاعيات المحتملةلتراكمات الأزمات المتتابعة، التي يعيشها الإنسان العربي على أصعدة شتى: دينية، وسياسية وثقافية، و اجتماعية.

أدونيس ومعركة المفاهيم:

يعدّ أدونيس من الروّاد الذين أعادوا قراءة الفكر الحضاري العربي الإسلامي، في سيآق المنهجية الغربية بشكل نقديّ، يقوم أساسا على تسليط الضوء على زوايا العتمة في تاريخنا الحضاري، وعلى تثوير بذرات الأمل، وإخراجها من سبات القرون الغابرة إلى دائرة النور، لتنبجس وتزهر في أرض الواقع الجدب، عسى يشرق الأمل من رحم الانتظار.

لعلّ جلّ ما كتبه أدونيس في سياق الدراسات الفكرية والحداثة، و في التأسيس لفكر حداثي نهضوي، ظلّ ينطلق من وعيه بالأسباب العميقة بأزمتنا الفكرية والتاريخيةو الدينية والحضارية للمجتمعات العربية، ما جعل خطابه في مسألة مستلزمات التحوّل يشكّل ثمرة نقده الحضاري الذي يتغيّا ترميم الذات المنشطرة بين التراث من جهة والمعاصرة من جهة أخرى، قبل أن يكون تأسيسا لأيّ شكل من أشكال الممارسة النقدية .

تبدو أسس النّقد عند أدونيس أنها تتشكّل مع دحضه لكل السّرديات العربية الكبرى، التي أنجبت عقلا استرجاعيا، معرضا عن الإبداع لا يجرؤ على التملّص من وصاية الموروث من ناحية، وعاجزا عن التواصل والتّحاور مع منجزات الآخر من ناحية أخرى، ذلك الآخر الذي تفصلنا عنه قرون من التفكير والجهد في صياغة إجابات حاسمة لأسئلة الإنسان المعاصر، وبلورة مفاهيم جديدة تقتضيها حمولة الرّاهن الثقافية، المنفتحةعلى إشكالات متعدّدة: الديمقراطية، المجتمع المدني، الحريات ، النسائية..وغيرها.

في ظلّ هذا السيّاق يأتي هذا المقال ليقف على أهمّ مقوّمات نقد أدونيس للموروث و على مستلزمات التحوّل في مقاربته، انطلاقا من مجموعة مقولاته المركزية التي طرحها في نصوصه الشعرية وطروحاته الفكرية، توصيفا لوضعية التّيه والتخلّف، موظفا العقل السؤول الجاد، الذي يتغيا الحقيقة، ويتقصّد الإبداع القائم –في الأساس- على تجاوز المألوف في كل المجالات المختلفة(الثقافة، المعرفة، الحياة المدنية..)، كما يسعى هذا البحث إلى رصد أهمّ محدّدات الجهاز المفاهيمي في نقد أدونيس وعلاقة ذلك كلّه

بمرجعيته النّقدية، وفق منهج تحليلي، يتوغّل في دلالة المصطلح المرتبط بمتصوّرات أدونيس الثقافية و الأدبية والنقدية، ويقف على مرفإ أدواته الفكرية.

منذ كتاباته الأولى اختار الشاعر والمفكر الإنساني أدونيس مسلك الحفر والتفكيك، من أجل إعادة صياغة المفاهيم، صياغة جديدة، بمنطق الضّمير الإنساني المفطور على الحريّة والعدل والحقّ، ومنذ الوهلة الأولى التي تشبّع فيها وعيه بفكر وثقافة الحضارة الإسلامية، وانفتاحه على أهمّ محطّات التاريخ العربي والإسلامي، تبلورت لديه قناعة أساسية، كانت بمثابة الطّاقة التي أحدثت الوهج الذي عرفته مسيرة الشعر والفكر والبحث لديه.

يعدّ بحثه في الفكر الثابت والمتحوّل، في سياق أطروحته للدكتوراه، التي اختار لها عنوانا دقيقا، يقوم على ثنائية ضدّية، تتجلّى عبر مجاليها بؤرة تأزّم الفكر العربي الإسلامي، منعرجا حاسما في مساره الفكري، وفي مسلك تجربته الشّعرية، و إن كان الخطّ الأساسي الذي ميّز تجربته الشّعرية، ظلّ واضحا دون التواء، أو تردّد في التمسّك بمنظومة القيم والمبادئ الإنسانية التي آمن بها، واتّخذ منها بوصلته في مقاربة قضايا مجتمعه العربي المحليّة وقضايا الإنسان الكونية .

في هذا السياق يتأتّى اهتمامنا ببحثه"الثّابت والمتحوّل"، لأنّه يمثّل عصارة الجهد الأدونيسي(نسبة إلى أدونيس) في معاينة أفق التصوّر الذي يصدر عنه العربي في أدّق و أعمق أشيائه، وذلك لما فيه من فهم لطبيعة حركته في الواقع، واستيعاب لتفاعله مع الكون الإنساني، وتحليل للخلفيات الثقافية والدينية، التي جعلته يظهر وفق الشكل الذي هوعليه من تأزم وانطباع حاضره بالمتناقضات، التي لا تخفى على كل واع متبصر، متفحّص لراهن العقل العربي بمنظار الموضوعية وبمنطق المكاشفة العلمية الجريئة، التي لا يسعها إلا وضع الأشياء في أسيقتها الطبيعية، بحسب ما يلزم أن تكونه في سياق الزمان والمكان.

ثمّ أنّه من ناحية أخرى، يبدو لنا أنّ بحثا ودراسة من شاكلة "الثّابت والمتحوّل بحث في الإبداع والاتباع عند العرب"، يمكن أن يكون مرجعا أساسيا لفهم أساسيات و طبيعة المشروع الفكري الذي تبنّاه أدونيس، عبر مسيرته البحثية شعرا، وكتابة، لجملة من الاعتبارات، لعلّ أهمّها:

1- (الثابت و المتحوّل) يستوعب المنظومة المصطلحية، التي تؤطّرفكر أدونيس، وتميّز رؤيته لواقع المسلمين اليوم، وتشكّل رؤاه الشّعرية، المستشرفة للحقيقة ولمستقبل الذات العربية، التي أنهكها التخلّف والعجز والوهم.

2- دراسته، هذه، تكشف عن أساسيات نقده الحضاري والديني للموروث العربي الإسلامي، و منطلقاته في علاقته بمن حوله، وعن موقفه من قضايا الإنسان في العالم، وبتعبير دقيق عن الأطر المرجعية لعلاقته مع الآخر.

3- يمكن اعتبار دراسته هذه الإطار المحدّد لمنظومة المفاهيم والمقولات، التي بموجبها يمكن الولوج إلى عالم أدونيس الفكري والفني ولا سيّما الشّعري ، باعتبار أنّه لا يمكن الفصل بين تجربة أدونيس الشعرية والمضمون الإيديولوجي والثقافي الذي يمثّل حمولة مواقفه الشعرية، ومساره الإبداعي الحافل بالتّوصيفات الجريئة ، والفهم البنيوي لمعضلات الإنسان العربي عبر التاريخ.

4- الثّابت والمتحوّل، يمثل مدار الصراع بين مفهومين متضادين، في ضوئهما تتحدّد ملامح صورة حاضر الواقع العربي بوضوح، رغم ما يلحق هذا الواقع من ضبابية، ووضعيات إشكالية، يصعب أحيانا استيعاب ما يحدث في أرجائه، ومعرفة البنية العميقة التي يتشكّل بموجبها.

إذن، مرة أخرى، يبدو أنّ الرّجوع إلى "الثابت والمتحوّل"، يسهلّ مهمّة الإحاطة بفكر وشعرية النّص الشّعري لدى أدونيس، و طبيعة الإشكال الذي يطرحه، كما يتيح الظفر بالأجوبة، التي تستوجبها الأسئلة الإشكالية، التي يقوم عليها فكره السؤول.

آثرنا في بحثي هذا- بموجب المتاح المنهجي المفروض- أن نختار أفكارا أساسية محدّدة ، وعيا منّا بعلاقتها المباشرة بطبيعة فكرة الموضوع ، من ناحية، وقيمتها في سيّاق الحديث عن أسس نقد أدونيس للموروث العربي الإسلامي وهي على النّحو الآتي:

1- أساسيات النقد الحضاري في مشروع أدونيس النقدي.
2- مستلزمات التحّول.
3- الأداة المصطلحية الموظّفة

أوّلا-أساسيات النّقد الحضاري في مشروع أدونيس النّقدي:

-ا- تعرية النّسق الثّقافي الدّيني:

إن المتتبّع لتجربة أدونيس الشّعرية والفكرية، فيما أنتجه من نصوص شعرية ونقدية، يلحظ أنّ الأسلوب النقدي الذي سلكه يقوم، أساسا، على كشف الأوراق التي تراهن بها الذّهنية السلفية، التقليدية في فهم الواقع والتطلّع إلى المستقبل، لأنّ النقد الحضاري« بتركيزه على الظواهر الفكرية و الأدبية والفنية، يرمي إلى كشف التناقضات ليس في الوعي فقط، بل في كلّ التجسيدات والبنى والعلاقات، التي تشكّل القاعدة المادية للحضارة الأبوية» (1) ولا ريب أنّ هذا المنحى يفيد في رسم معالم صورة الواقع العربي الإسلامي، قصد تحديد ما لحقها من خدوش العصور الغابرة والوقوف على ما هو متاح من إمكانات الترميم، التي من شأنها أن تعيد الألق المفقود في زوايا هذه الصورة، حتّى تسهم في تقديم دلالة ايجابية عن طبيعة الإنسان العربي في مسلك التاريخ الحضاري للشعوب، عسى أن تتحرر الأجيال القادمة من عقدة النقص المتوارثة، فتستطيع تبنّي رصيد السلف في سياق تحديد الموقف الواعي من متغيرات ومستجدات العصر.

إنّ ممارسة التّعرية من خلال كشف المسكوت عنه في تاريخ الثقافة والحضارة الإسلامية، يعدّ آلية فعالة في إعادة تسمية الأشياء بمسمياتها، ووضع كل مقولة ضمن سياقها الذي تتّصل به، لأنّ معرفة الحقيقة المرّة خير من الوهم المريح، ومعرفة طبيعة المرض الذي ينهش الجسد، هو أوّل طريق لبداية العلاج النافع، لذلك فإنّ جلّ ما عرف به نقد أدونيس لتاريخ الثقافة العربية، ثم ما عرف به طرحه من ازدراء لمنظومة القيّم الإسلامية ونصوص التراث، إنّما مردّه،في تقديرنا، يعزى إلى مسلكه الذي يتحاشى أسلوب الدراسات والمقاربات المألوفة التي غالبا ماتقول وتطرح ما يستلذّه اللاّوعي الجمعي العربي، وماتستأنس به النفوس المهزومة التي يتلبسها خوف فطري ما من سماع الصوت الجريئ الذي يكشف عجز الذات، والمنطق الذي يفضح تأخرها عن الركب العالمي، كما لو أنّ قدر هذه الذات المنتكسة حضاريا تطمئن،على الدوام، إلى كل خطاب مخادع يعزف عل أوتار الحماسة العمياء والعاطفة الجياشة،التي تحترق في أوارها الحقيقة المرّة.

لعلّ هذه الحالة مماثلة - تماما- لما تقوم به معظم النّخب المثقفة، في واقعنا الرّاهن من مداهنة وتغطية لأساليب الزّعامات السياسية المرتبكة والمستنكفة عن مجابهة الأحداث وتغيرات العالم المتحوّل، مفتقدة الجرأة والوعي بضرورات التعامل مع متطلبات الراهن و أسئلة المستقبل، وهي بهذا الحال تظلّ منغلقة حول نفسها في نفق الماضي، مكتفية به قدرا و أملا، مردّدة صوت التمجيد لإرث تليد، غير آبهة بتحوّل العالم وتلاشي الحدود، وسقوط الحصون، وفشل الحراس المأجورين في عصر معولم، ديدنه التغيّر المستمر ونظرته نحو المستقبل موطن الرّهان الأصيل.

هذا المنطق وهذه الرؤية المتحصّنة بقلاع التراث، تكشف عن تقاعس أصحابها في القيام بدورهم الرسالي إزاء حاضر أمتهم وطاقاتها الناشئة، وقد توظف الأقلام- التي يفترض أن تكون مدافعة عن الحرية والحق- لمثل هذه الشريحة لتجميل القبح وتبرّيرالعجز والفشل وتزييف الواقع لتراه كما يحلو لها أن تراه، فتزداد تشبّثا بقناعاتها الفاسدة، وثقة بأساليب تعاملها مع شعوبها تحت مبرّرات واهية من قبيل: "المصلحة العليا" و"خطرالإرهاب"، و"المؤامرة"، "الوحدة الوطنية"، "الاستقرار"، وغير ذلك من أساليب التدليس والتجهيل.

لذلك يبدو أنّ أدونيس منذ الوهلة الأولى، اختار مسلكه في الكتابة والإبداع، و اختار التحوّل عن الوجهة، التي يؤمّها كثير من شعراء وكتاب جيله، ثورة على كل أشكال السلطة، بكل تجسّداتها التقليدية، والقوى المكلّفة با لدفاع عن هذه السلطة، التي تدّعي الأوّلية و الأصالة.

في هذاالسياق يتبني أدونيس أسلوب التّعرية و الحفر في أسباب تخلف الفكر العربي، ليبحث من خلاله عن لغة جديدة لرصد الحقيقة ورسم أبرز إشكالات الواقع قي مرآة الضمير العربي الحي، وليس ذلك فحسب، و إنّما الإنساني كذلك، لانّ من شأن هذا الأسلوب، أن يحقّق الوعي لدى الناشئة، باعتبار أنّ الأمل معقود في ناصيتها والتحوّل يرتجى في مقاصدها، وهو مقصد توخاه إفلاطون قديما في مشروع

جمهوريته، و اختياره لطبيعة الناس الذين يحققون هدفه المنشود، إذ كان حرصه على تنمية عقول الناشئة هدفه الأكمل، ولأن كانت علاقة إفلاطون بالشاعر شابها نوع من الرفض وعدم الرضى في ملامحها الأساسية، وبشكل خاص فيما عرف بعدم ثقته في شخصية الشاعر (الفنان)الذي لا يتحمّل مسؤولية كلامه، لما يصدر عنه من عاطفة ووجدان، لا يؤهلانه إلى تصوّر الحقيقة على أكمل وجه وبشكل يقيني، وهو ما يشكل خطرا على الناشئة ، كما تصور ذلك إفلاطون، فإن أدونيس بوصفه شاعرا أولا ومفكرا ثانيا آمن بأنّ الحفر في النّسق الثقافي العربي وتحليل بنيته الدينية، هو سبيل الخلاص، وهو"تكنيكه" المتبع لإزاحة السّتار الكثيف الذي يحول دون رؤية الدروب الموصلة إلى الحقيقة.

1-1أدونيس ومشكلة الدين :

بحث أدونيس في بنية الدين الإسلامي، فوجدها بنية موغلة في الثّبات، متعلّقة بالأصل؛ أصل يتمظهر أساسا في هذه العربية، لغة الأسلاف، مظهر التفوّق العربي وبراعته، ولغة الوحي، لغة القرآن الكريم المستوعبة لكلّ الحقائق، كما يكشفه الإجماع الحاصل حول هذه المسألة، منذ نزول الوحي إلى يومنا هذا.

يتمظهر هذا الأصل، أيضا، في نموذج القول الشعري العربي القديم، الذي يحيلنا بحسب رؤية الثقافة السلفية في شقها الإبداعي، على العبقرية الخالصة، والتفرّد المكين، مصدر كل تفرّد الذي لا تفرّد بعده، حيث أنّ قدر الشاعر العربي، أن يحتذي شكله، وينفث حرارة دلالاته، و إلاّ كان ما يأتيه هو ضرب من البدع والضلال، كما يتحدد هذا الأصل فيما يتضمنه القول المنسوب للشافعي« كل متكلم من الكتاب والسنة فهو الحقّ، وما سواهما هذيان » وفيما نسب، كذلك، لأبن تيمية « كل ما خالف الكتاب والسنّة فهو باطل قطعا » كما يتمظهر هذا الأصل، على صعيد آخر، فيما اتفقت عليه الجماعة أبا عن جدّ، من أعراف القول والفعل، والتي تناقلتها الأجيال جيلا عن جيل حتّى و إن كان أولئك الآباء و الأجداد لا يفقهون شيئا، على حدّ تعبير القرآن الكريم، في قوله تعالى: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ](170)(*).

من هذا المنطلق، أراد أدونيس أن ينتصر للكلام على حساب اللغة، أن يقول كلمته في حق هذا الموروث العربي الذي يركن إلى الثّبات والمطلقية أكثر من ميله إلى ممكنات الإضافة والاستمرار، يقولها انتصارا للفرد وللوعي وللرؤية المخالفة وللحقيقة« لأنّ الكلام تركيب مغاير جديد، إنّه إبداع صيّغ، وجمل غير معروفة، هو إبداع تابع لشخصية المبدع، وليس لّلغة، من حيث هي ذات معيّنة، تقولها أو تفصح عنها، فهي جماعية، لا تنتمي إلى فرد، وليس هوية فردية، إنّها جاهزة، مسبقا، أما الكلام فيحيل إلى معنى يدلّ على الذات المتكلّمة، فالكلام فردي، وله، حكما، هوية فردية[..] واللّغة هي الثّبات، أمّا الكلام فهو الحركة الدائمة » (2).

الكلام بهذا المعنى هو المسلك إلى تأسيس مفهوم جديد للحقيقة، التي ظلّت في منظور أدونيس مقيدة بضرورات النّظام اللّغوي الذي يقوم على مبدإ النقل المتوارث، إذ كلّ عربّي في هذا المنظور« يسكن في بيت

لغوي يسع الكون، هذا البيت هو باللغة السياسية، الاجتماعية، الأمة، فالأمة قوى انفصال عن الطبيعة وارتباط بالّلغة، وكلّ انفصال عن الطبيعة من أجل الارتباط بالّلغة يؤدي إلى قيام ثقافة نمطية، تكرارية تقوم على القواعد، أي على الأمر والنّهي، وبكلمة: ثقافة واحدة ثابتة تصدر عن الواحد الثابت » (3)

1-2أدونيس وتأصيل الأصول:

تأصيل الأصول عند أدونيس من خلال دراسته(الثابت والمتحوّل)، والوقوف على مقولتي الثابت والمتحول واستنطاق ماضي الموروث العربي الإسلامي في ضوء دلالتهما، يمثّل "تكنيك" التّعرية الموضوعية، التي تسعف في تحديد طبيعة الظّاهرة قبل مناقشتها، وهو إجراء منهجي علمي، يقوم على الفرز والتحديد والفصل بين ماهو ثابت ومتغير على صعيد المعاينة والتحليل، يضع اليد على لبّ المشكلة لتتعين سبل معالجتها بعد ذلك.

من هذا المنطلق، فإنّ أدونيس أوضح أسباب حالة التخلّف، التي عرفتها المجتمعات العربية الإسلامية، ليستنبط الحلول الممكنة للخروج من وضع السبات العميق ، والدّخول في معركة صناعة التاريخ، وهو مبدأ علمي ينصّ، فيما ينص عليه، على أنّ معرفة الأسباب تتيح حلول الوضعيات الإشكالية، و الإحالة عل المقدّمات موصل بالضرورة إلى النتائج.

من هذا المنظور، فإنّ أدونيس يتكئ في نقده للموروث و للواقع العربي الإسلامي، على جملة من المسلّمات الأساسية:

ا- الذهنية العربية ذهنية مبنية بناء دينيا، ما يجعل منها ذهنية تركن إلى الثابت، مستغنية عن الدّنيا، متطلّعة إلى الغيب، مطمئنة بأفضليتها عن باقي الذّهنيات الأخرى لسائر الخلائق في الأرض، ممتلكة للحقيقة بموجب النّص الديني، الذي تفضّلت به عليها السماء، تعيش يومها في ظلال ذكرى أمسها، وكلّ المآثر التي في سجل تراثها تمنعها من بناء تصوّر شامل عن المستقبل، والقانون الذي يضبط حركتها في الحياة يستمد منطلقه من التّواكل والحماسة الشفوية في مقابل الفعل، ومن الأصالة في مقابل المعاصرة، و من أسبقية السلف على الخلف في كلّ الأمور.

هذا السلف يمثل أيقونة القوة والصّلاح، وهو الأصل، ومن جاء بعده فرع، وهو يمتلك اليقين، ومن خالف نهجه(نهج الجماعة والسلف الصالح) في ضلال وشكّ مريب، وهو الرؤية الجامعة، وصلاح الخلف لن يكون إلاّ في أبعاد هذه الرؤية، التي صاغها منطق الجماعة عن الحياة و الآخرة، وهكذا دواليك، حتى تتضح القاعدة الجوهرية المترتّبة عن سلم الأفضلية والأحقية، التي تنصّ على أنّ صلاح هذا الجيل لا يتأتىّ إلاّ بما صلح به أوّله وهو، لعمري، منطق يلغي كل إمكانات التحرّر، والإبداع عن الإنسان العربي في زماننا هذا ويسقط عنه، مسبقا، الأهلية في بناء حياة متطوّرة، وتحصيل عيش كريم، كما لو أنّ التمكين في الأرض، إنما يتحقّق بالتوريث، أو بمحاكاة أساليب الأسلاف في نمط تفكيرهم وطريقة عيشهم حرفيا،

وتقمص رؤيتهم للعالم،ولاشك أن هذا النوع من المحاكاة ليس محاكاة وظيفية، لأن المحاكاة – على الأقل في منظور أرسطو – من خلال كتابه الرائد "فنّ الشعر"، لا سيّما في مفهومه للمحكاة، إذ نقل مفهوم التقليد والاتّباع من سياق ارتباطه بالعام قاصرا اياّه على الشّعر، مؤكدّا أنّ المراد بالمحاكاة، إنّما هو نقل الطبيعة لا كما هي في الواقع، و إنّما على أحسن صورة يمكن أن تكون عليها، ما يجعل من المحاكاة، بوصفها تقليدا، تؤدّي،بدورها، دلالة الابتكار والخلق، أكثر من دلالة التقليد الباهت الذي لا خصوصية فيه، ولا حياة.

ب- الذّهنية العربية لا تمارس فعل التفكير لمجابهة الأزمات، لأنّها لا تحسن قراءة التاريخ والحاضر، و إنّما تقوم بفعل التذكّر لما ما مضى، عالقة في مسالك زمن الطفولة الأول بالتعبير "الفرويدي"، مسترجعة الحنين إلى الأيام الخوالي، ولعلّ هذا ما جعل أمّة العرب قاصرة على إنتاج فكر جديد، يؤسّس لرؤية تقوم على الرّاهنية والاستمرار، يحرّكها التساؤل والشّغف إلى معايشة اللّحظة والابتكار، لأنّ قدر المبدع « إمّا ينجز أثرا عظيما، يكون بذاته منبعا لقيم إنسانية جديدة، و إمّا يعطي نتاجا يحمل أيقاع الحياة، يجيئ مليئا بالاحتمالات، بالإشارات إلى ممكنات جديدة، إلى طرق جديدة » (4).

ج- الذهنية العربية ذهنية انعزالية، تعوزها الثّقة في فعل التحوّل، وفي قدرتها على الانجاز، لما ألفته من تعصّب للأصل، الذي ليس شيئا غير ما يصدر عن رؤية دينية للأشياء، كما صاغها القرآن الكريم، والسنة الشريفة، ومصادر أخرى للنّظر والتشريع ولو كان ذلك على حساب مقدراتها التاريخية، ولعلّ هذه الانعزالية، هي ما جعل الأمّة لا تحسن أدوات القياس، وأنىّ يتأتّى لها ذلك، وهي ترفض الانفتاح على منجزات الآخر وترفض مقايسة ما تمتلكه من موروث بقسطاس ميراث الإنسانية، قصد الوصول إلى مشتركات و إمكانات للتواصل، على الرّغم من كون القرآن الكريم كتاب الله لأمّة العرب وللعالمين فيه من الإشارات القويّة، التي تحثّ على التطلّع إلى ما للآخر من مهارات و مكتسبات ومقدرات لتأسيس تعارف حضاري إنساني يعود بالفائدة، إن على مستوى تنمية الرؤية المشتركة ، أو تحصيل المعرفة، إذ يقول تعالى:[**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**] **(13)** (**) ومع ذلك فإنّ التاريخ يقدم لنا شواهد عن روح التعصّب، والتنّكر للرأي المخالف في الثقافة العربية، بل أن دماء غزيرة أريقت نتيجة اختلاف في الرؤية، أو عدم اتّفاق حول قضية ما، كلّ هذا جعل الفكر العربي فكرا لا يحسن الحوار، ويفتقر إلى ثقافة التعبير عن ضرورات مقتضى الحال في عالم يقوم على صراع القوى وتضارب المصالح.

د- الفكر اللاهوتي، بما هو فكر يردّ كلّ الأشياء إلى الله، ويسعى إلى إيجاد تفسيرات لها في ضوء النص الديني، دون إعمال للعقل والتفكير الحرّ القائم على التشكيك في الثوابت من أجل إعادة صياغة العالم وفق رؤية واعية في سيّاق تطور الصيرورة التاريخية، وتطوّر أنساق الفكر الإنساني، يعدّ في منظور أدونيس الحاجز الذي يتوجّب تجاوزه، حتى تجد المجتمعات العربية لها مكانا تحت الشمس في عالم التفكير الحرّ والإبداع، يختلف جذريا عن العالم الذي أنجزته العقلية العربية حول نفسها.

لا يعدّ أدونيس المفكّر العربي الوحيد الذي يراهن على مصادرة الأرضية اللاهوتية لبناء أرضية جديدة يعضدها التساؤل الحرّ، وحبّ المعرفة، وفضول الكشف والبحث عن الحقيقة، فهذا محمد بنيس يحدّد مسلك التملّص من دائرة التخلّف التي تتحرك في أرجائها المجتمعات العربية، عبر التحرّر الجذري من الإرث الدّيني، إذ يقول: «إن تفكيك الأرضية اللاهوتية سابق على كلّ نقد، لأنه ينزلنا من السماء إلى الأرض، وقد آن لهذه السماء أن تكفّ عن تغييب جسمنا، وتشطيره إلى نور وظلام، يمين ويسار، خير و شرّ، ملائكة وشياطين، آن لهذا الجسم، أن يحتفل بشهوته، ومتعته، يبدع قيّما أخرى ليست من الضرورة تحديدها مسبقا»(5).

هـ - الفكر العربي يفتقر إلى مشاريع حيّة، بموجبها يعاش الحاضر ويحيّن على صعيد الممارسة، للتفاعل مع زخمه وعلاقاته وتبعاته، و يتمّ التطلّع إلى المستقبل باعتباره الهدف والغاية اللّذين يسوّغان محتملات المراهنة، وبمقتضاها يتمّ بعث الماضي لمساءلته في سيّاق الحاضر ومتطلّباته لاستخلاص العبر، ومردّ ذلك لأنّه فكر يقوم على التّابعية للنموذج القديم، ويقول بالأصالة على حساب المعاصرة، من حيث أنّ الأصل هو مصدر الحقيقة، وهو النموذج الكامل الذي يجب السير على منواله في المقاربة والنظر والممارسة، ولأنّه في المخيال العربي يمثّل أرقى ما يمكن أن يصل إليه العقل العربي، فليس أبدع مما أبدع.

إذا كان تشبّث العقل العربي بالنموذج السلفي يمثل شكلا من أشكال معضلته الكبرى، فإنّ اعتماد هذا العقل على استعارته للمنجزات الغربية، والرّكون إليها دون قراءة واعية محلّلة، فاحصة، تحسن انتقاء ما يفيد، وترك ما لا يفيد لمتطلبات الإنسان العربي في سياق الأزمة، التي يعيشها في مجالات كثيرة، يمثل أيضا شكلا آخر من الأزمة، لأنّ كلا المظهرين يكشفان عن عدم استقلالية الفكر العربي استقلالا ذاتيا.

هذه وضعية إشكالية لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، وهو حال نجد انعكاسه واضحا على العقل العربي؛ فإمّا نجده، كما قلنا سلفا، منخرطا كلية في الموروث، لايرى شيئا يمتّ بصلة إلى الصواب والحقيقة إلا عبر مسلك التراث، مختزلا تاريخ الفكر الإنساني، بنظرة حماسية، متعصّبة، فيما أنجزه السلف، وهو موقف يجعله يفوّت كثيرا من الفرص لمساءلة الذات وقراءة الماضي في ضوء معطيات العصر، لتأسيس ضوابط الاستمرار والمضي نحو التمام والكمال، وإمّا نجد هذا العقل العربي، مرتبطا كل الارتباط بمنجزات الغرب، كما لو أنها الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، ملغيا كل إمكانات القراءة والنّقد لهذا التراث، ومستغنيا به عن أيّ إضافة ممكنة.

يكشف هذا الموقف عن درجة الضعف، وانعدام الثّقة في النفس وعن عقدة النقص إزاء الآخر، فيما ينتجه من معرفة، وتطوّر، ودون ريب أنّ هذه الوضعية الإشكالية، التي تميز العقل العربي، هي ما يجعل إمكانية إعداد مشاريع فكرية ذات خصوصية عربية، إسلامية بعيدة المنال، في غياب ممهّدات تقوم على النقد وإتقان القراءة.

2- ممارسة الهدم والتّجاوز:

تقوم الكتابات الشّعرية والفكرية الأدونيسية على مبد أساسي، يحدّد اعتناقها لرؤية الحداثة، وتملّصها من أعباء التراثية، التي تقوم على المحاكاة، والثبوتية، والتبعية.

يتمثّل هذا المبدأ في فعل الهدم، والتجاوز، لكل المسلّمات الموروثة عن الفكر العربي القديم، ولكلّ منظومته المفاهيمية، طالما أنّها منظومة تستند على الثبوتية، وتقديس الأصل، ولا شكّ أنّ هذه النّزعة في مقاربات أدونيس، لا سيّما الشّعرية منها، إنّما تأتّى نتيجة انفتاح وعيه على الثّقافةالغربية، وتشبّعه بمقولات الحداثةالغربية، التي تحرّكها روح التجدّد، والابتكار، والتجاوز، ويسكنها هاجس المختلف، ويقودها الوعي الذي يؤمن بالإنسان في طبيعته الفردية، وفي قدرته على إحداث الفارق وتأسيس الجديد، وصياغة الأسئلة بالكيفية التي تتزامن مع طبيعة راهنه، ومستجدات عصره.

ومعنى هذا، أنّ نقد الموروث في منظور أدونيس ، ينطلق أساسا من ضرورة إعادة تثوير التوتّر في بنية الفهم، و إقامة أسس وعي جديدة، تستدعي الخروج عن نسق الثقافة والسلطة الأبوية المعهودة، وتجاوز اللغة القديمة إلى إبداع لغة جديدة خارقة، متجاوزة، قادرة على خلخلة الفكر المهيمن.

في هذا السياق يستشهد أدونيس بالثورة التي قام بها بعض الشعراء في تاريخ الشعر العربي تجاوزا، لطبيعة الفكر الذي كان سائدا، وتمرّدا على التصوّر القبلي النمطي للحياة ولعلاقة الإنسان بالعالم، فيقدم لنا شعراء، هم بمثابة النّواة الأولى لمشروع الابتكار، والإبداع في مقابل النمطية التي أسسها الوعي الثبوتي، والفهم المنبثق من سجن اللغة ومنظومة القيم السلفية،إذ يقول:« كان في شعر إمرئ القيس، وطرفة وعروة بن الورد والصعاليك بعامة خميرة صالحة لدفع التحوّل في اتجاه و أقاصي جديدة » (6).

الاستغناء عن دفء معطف الأجداد، و مجابهة شتاء عمرنا الحضاري، على ما فيه من قساوة البرد شدة العواصف ينمي الإدراك بحقيقة الأمر، لأن حقيقة الواقع، و إن كانت مرّة، فهي تمنح متاحا لإعادة ترتيب الأشياء، وبناء رؤية عن الحاضر والمستقبل رؤية حقيقية تجيب عن تطلّعات الإنسان ذاته، ابن اللحظة ذاتها، لا الإنسان الذي يعيش حاضرة بزمان غيره، ولأنّ العقل العربي، في منظور أدونيس، نتيجة طبيعية للتديّن الحاصل، ونتيجة لطبيعة البنية الدينية ،التي تقوم على الأحادية، والثبوتية، والأصل الواحد، فهو عقل يشتغل في قطيعة عن حاجة الإنسان العربي ومتطلّبات عصره، على اعتبار أنّ« الفكر انبثاق من التجربة، لا هبوطا من الغيب. كذلك، لا تعود السياسة ممارسة باسم الوحي وشكلا للتصور الديني للعالم، و إنما تصبح ممارسة إنسانية تقوم على العقل » (7).

ومعنى هذا أنّ الإنسان العربي مطالب بالعودة مرّة أخرى إلى مجرى التاريخ، وسياق صناعة الأحداث، وقراءتها، والمساهمة في توجيهها، ولتحقيق هذه الغاية، يتعين عليه الاعتقاد بمبدأ التجربة؛ أي الانغماس في الصراع ذاته، بوصفه ناموس الوجود، و أن يقبل بمقايسة ما لديه من تراث ومقدرات فكرية حضارية بمقاييس الوجود الذي لا يكف عن الحركة والتجدّد، و إن شئنا قلنا: يتعين عليه أن يتزامن مع لحظة راهنه، باعتباره الرأس المال الحقيقي لكل مغامرة جريئة للتطور ولاستمرار.

ركون الذات العربية إلى الدين واكتفائها به مسلكا في الخروج من التيه و إعادة الأمل من جديد، لا يمثّل المخرج الحقيقي في منظور أدونيس، لذلك فهو يفضّل الإلحاد، بوصفه دعوة إلى الإيمان بالإنسان، من حيث هو إنسان على التمسّك بالدين، بوصفه طريق الخلاص الأبدي، « فالدين لا يوحّد بين الإنسان والإنسان بل، على العكس، يفرّق بينهما، أما الذي يوحّد بينهما فهو العقل، لا بد، إذن، من إزالة الدين من المجتمع، و إقامة العقل، والإزالة هنا لاتقتصر على الدولة أو الدين العام، بل يجب أن يزال الدين الخاص أيضا، أي دين الفرد ذاته» (8).

يمكن أن نستنتج مما سبق أنّ إجراء الخرق والتجاوز في مقاربة أدونيس يتلخّص في ضرورة التحرّر من المعتقد الديني، والإيمان بالإنسان عقيدة، وقدرة على تغيير العالم، ذلك لأنّه محور العالم، وهو صانع الحضارة، إلا أنّ شكلا من هذا الخرق والتجاوز لكلّ المسلمات القبلية المتراكمة في الذهنية الثقافية، يضعنا أمام إشكالية كبرى، يمكن أن نعبّر عنها بصياغة السؤال الآتي:

- إذا ما سلّمنا بضرورة تحرّر الإنسان من الدين، بوصفه سلطة تبقيه مرتبطا بالغيب أكثر من استغراقه في الوجود الذي من حوله، و إذا ما سلّمنا، جدلا، أنّ هذا من شأنه أن يعمّق وعيه بالإمكانات التي تمكّنه من استيعاب جدل الطبيعة، و الإنسان، فهل يمكن لهذا الإنسان ذاته أن يستغني عن الأسئلة الكبرى، التي تبقى عالقة في ذهنه عن شساعة هذا العالم الذي من حوله، والذي لم يكتشف منه في رحلة بحثه الطويلة إلاّ القليل، ثم هل يجد إجابة عن إحساسه بالنقص،الذي يشعر به، على الأقل بوصفه كائنا آيلا إلى الزوال، في تجرّده من الغيب، ومن الاستمساك بقوة الغيب، مكتفيا باعتناقه للعقل؟

أليس الإلحاد، و إسقاط أي إمكانية لوجود الله، هو ذاته إيمان وتديّن بطريقة أخرى، خاصة حينما يتأسس مثل هذا الخطاب و يتم التسليم المطلق بعدم وجود قوة غيبية تتحكّم في شؤون الكون؟ أو ليس النّفي ذاته لوجود الله، هو إقرار أكيد بوجوده، إذ لا يعقل أن ننفي شيئا غير موجود في الأصل، وإلاّ كان نوعا من العبث المنطقي، فالنّفي، بهذا المعنى، إنّما هو مسلك للإثبات.

ثانيا/ مستلزمات التحوّل في المشروع النقدي الحضاري عند أدونيس:

ا-عقلنة الخطاب، و إثارة الجدل:

يربط أدونيس التحوّل من وضعية السبات العميق والركود الآسن الذي يطبع واقع المجتمعات العربية في شتى المجالات بضرورة إعادة الاعتبار لدورالعقل، ولدور الجدل، لأنّهما المسلك لإعادة صياغة جديدة لطبيعة العلاقة القائمة بين جملة من الثنائيات في الخطاب الثقافي العربي، منذ عصر الجاهلية إلى يومنا هذا، و إن تعدّدت المسمّيات، فإنّ معاني هذه المصطلحات هي نفسها من حيث المعنى:(الأمس، اليوم) ، (الثّابت، المتغيّر)، (السلف، الخلف) ، (الجوهر، الهامش) ،(القديم الجديد)، (القلب، الهامش)، (النص،

الرأي)، (الأصل، الفرع)،(الأوائل، التابعون)،(الحياة، الموت)،(الأصيل، المحدث)، (القبيلة ، المجتمع) وغيرها.

كل هذه المسمّيات في تاريخ المدوّنة التراثية، والحديثة في تاريخ الفكرالعربي تقوم، أساسا ، على التنافر، التضاد، ومعنى هذا، أنّ مسار الفكرالعربي، بدئيا، قام على الإلغاء والإقصاء، وهو ما ترك أثرا سيئا في مساق التراكم المعرفي في تاريخ المجتمعات العربية، إذ لم تكن المعرفة استجابة لحاجة الإنسان، بوصفها قوة تتطلّع إلى تحسين الواقع، والتطلّع إلى المستقبل، وإنّما كانت هذه المعرفة تستجيب لما يخدم الصراع وينمّي الخلاف، لا لبلورة المشترك، والمضي نحو الأمام.

بدئيا، هي معرفة تؤسّس للنزاع، للصراع، للحرب، للقطيعة ،وليس للسّلم والانسجام والأمن والاستمرارية.

يستخلص أدونيس من حقيقة هذا الواقع أنّ اختيار منحى العقلانية في استيعاب التراث، ومناقشته في سياق جدلي مع مستجدات الحاضر هو المخرج من دائرة الأزمة التي يعرفها العقل العربي اليوم، بل إنّ احترام خصوصية الذّات العربية و خصوصية العصر الذي تحيا فيه، يمثل منطلقا نحو التطوّر، وتجاوزا لمنطق الأبوة الموروث، ويعدّ ضرورة لا بد منها،« مما يستدعي الإطاحة بالخطاب الأبوي الذي يدّعي امتلاك الحقيقة الكاملة، و الإعلان أنّ الحقيقة ليست ملكا لأحد، بل هي إجماع في سياق تاريخي متغيّر وملك للجميع » (9).

التركيز على العقل والمعرفة، لإحداث القطيعة مع الواقع المتعفّن،من ناحية، ودحض مقولات الفكر التراثي المهترئة لم تكن منحى أدونيسيا محضا، ففي قلب المدونة التراثية، نجد أصواتا، لا تتردّد في المطالبة بعقلنة الخطاب، بوصفه الأسلوب الفعال في إحداث التغيير، والفكر الاعتزالي(نسبة إلى المعتزلة)، إنّما قام أساسا على العقل، بل إن المعتزلة يمثّلون المدرسة العقلية في تاريخ الفكر العربي، إذ سعت إلى عقلنة الدين الإسلامي، في سياق ابتكار قراءة جديدة للوحي، وللمسؤولية، والمجتمع، والأمة، والمستقبل.

توظيف العقل،إذن، كان موضع التميّز بين الأوائل والتّابعين، وتابعي التابعين، حيث يرى أبو القاسم الصقلي في الأنوار أن أكثر الناس استيعابا لنص القرآن الكريم، هم الأكثر استخداما للعقل، فيقول: « كان أخصّ الناس بفهم علم كتاب الله وشرح معرفة السنة، وعمل الرسول أهل القرن الأول، لأنهم أفضل الناس عقلا و أوسعهم علما، ثم جاء القرن الثاني، فكانوا أعقل الناس و أعلمهم بعد الصحابة بمعاني آي الكتاب والعمل بالاقتداء وفهم ما شرحه الصحابة من البيان، غير أنّ الإيثار الذي خصّ به الصحابة رقّ في التابعين وكذلك الزّهد في الحلال، ثمّ جاء القرن الثالث، فذهب أكثر أهل العلم، وقلّ فيهم الخوف والرجاء والصبر والشكر، وكثر فيهم الخوض والجدل والخصومة والمراء، وصارت الحقيقة خصوصا والجهالة عموم » (10).

ما يحيلنا عليه هذا المقتبس، أنّ العقل كان أداة الفهم عند السلف، في تعاملهم مع النص، إلا أنّ مستوى الفهم والتحليل كان يقلّ تدريجيا عبر العصور المتعاقبة في تاريخ المجتمع الإسلامي، بسبب قلّة الإيثار والزهد في الحلال، على حدّ تعليل أبي القاسم الصقلي .

لكن يبدو أنّ سبب تراجع العقلانية في الأخذ بالنّص، إنّما مردّها التّبعية، التي نتجت جراء الثّقة المطلقة في صحة القراءة والفهم لأهل القرن الأول من عمر المجتمع الإسلامي، ما أدى بتراجع المقاربة العقلية، وغلبة النزعة التقليدية، التي جعلت من فهم الجيل الأول للنص، ولطريقته في فهم العالم بمثابة المدونة الأصلية التي لا يمكن تجاوزها أصلا.

2-امتلاك الرؤية:

يبدو أنّ كلّ محاولات النّهضة في تاريخ الفكر العربي، لم تصل إلى هدفها الأساس، المتمثل في تغيير الواقع نحو الأفضل، وفي بناء إنسان قادر على صياغة مشاريع نهضوية، لا تزول بزوال أصحابها، تكتسب تطورها وتنمّي مردودها النّوعي بشكل تلقائي في مناخ الحريّة، والديمقراطية، والمعرفة، وهي أهداف أيّ نهضة بشرية، حينما تتّكئ على مرجعيات أصيلة، وتنطلق من رؤية واعية للحاضر والمستقبل، رؤية تجعل أولى أولوياتها تطوير الإنسان، وبناء وعيه.

يظهر أدونيس في" لثّابت والمتحوّل-بحث في الإبداع والإتباع عند العرب" لبّ مشكلة الإنسان العربي في مشاريعه النهضوية، إذ كل محاولات التحديث، التي بذلت تتّصف بافتقادها لرؤية شمولية لطبيعة المشكلة التي تعانيها المجتمعات العربية، وقصارى الجهد المبذول في سبيل محاولات النّهوض، إنّما هو من قبيل محاولات يائسة لإبقاء الأمر كما هو عليه، ومن قبيل المحافظة على أبسط شكل ممكن للحياة، وعلى أبسط صورة ممكنة للواقع، بل أنّ جلّ المحاولات المبذولة في المشاريع النهضوية العربية، إنّما هي، في واقع الأمر، إعادة ترتيب للمشكلات في سيّاق الأزمة الشاملة، التي تعاني منها معظم المجتمعات العربية، وفي كثير من الأحيان تندرج هذه المحاولات في نطاق ترقيع الأمور في اللّحظات الأخيرة من عمر الأزمة.

مثل هذا السّلوك في التعامل مع الأزمة، يكشف عن ذهنية لا تقوم على تصوّر شامل لمتطلّبات الرّاهن و مقتضيات المستقبل، ولعلّ ذلك يعود أساسا إلى أنّ ثقافة الإنسان العربي، في أعمق مستوياتها، هي ثقافة شفوية، بمعنى أنّها تؤسّس للكلام على حساب الفعل، الذي هو محرك التجربة، ولربّما هذا ما جعل توصيفا لا زال عالقا في ذمّة العرب إلى يومنا هذا، إذ يشاع " إنّ العرب يقولون ما لا يفعلون" و "أنّ العرب أتّفقوا على أن لا يتّفقوا"، فالافتقار إلى ثقافة التجريب، وما يترتّب عنه من الخطإ والصواب، يجعل من دقّة النظر وبناء الرؤية الشاملة عن القضايا الإشكالية أمرا ليس في المتناول، لذلك فإنّ أدونيس، على صعيد الإبداع الشعري، يرى أنّ الخطيئة تنمّي الكفاءة الإبداعية، وتحرّر الذات، بما تتيحه من متاح للكشف والتجريب، بعيدا عن سلطة الرقيب الديني، والاجتماعي، وتصقل المهارات لدى الشاعر، فهذا« أبو نواس شاعر الخطيئة، لأنّه شاعر الحريّة، فحيث تغلق أبواب الحرية تصبح الخطيئة مقدسة » (11) .

ولعل هذا ما عناه الفيلسوف "نيتشة" حين قال:" لا مناص من الشّر" من منطلق أنّ الخطيئة تفتح أبواب الوعي عن عوالم ما كان للإنسان أن ينفتح عليها وعيه، لولا تجربة الخطيئة، « إنّ الإنسان بحاجة إلى الأسوء من أجل خيره الأكبر، و أنّ الشرّ الأكبر هو طاقته الكبرى، والحجر الأكثر صلابة بالنسبة للمبدع الأرقى، وأنّه على الإنسان أن يغدو أفضل وأكثر شرّا » (12) فالخطأ يمدّ الإنسان بالطّاقة من أجل المضي قدما، لذلك عدّ في كثير من ثقافات الشعوب أنّ الخطأ طريق إلى الصواب، ومسلك المعرفة الحقّة.

في قصيدة " السديم" من ديوان " أوراق الريح" وعبر حديث ثلاثة مجانين عن مواقفهم في الحياة، نجد ما يبرّر أصالة الخطيئة، وحقيقة علاقتها بمعرفة الطريق، إذ يقول أدونيس:

« من محال الكون أن تمحو

في الكون الخطيئة

فهي للخلق بناء، ورداء

وهي بالحقّ مليئة » .

.....

« و من الباطل أن تقصى عن الباطل أرض

فهو في العالم فرض » (13)

إعادة بناء منطق الأشياء، في كثير من الأحيان، إنّما يتأتّى عبر تعلّم الإنسان من أخطائه، فلاعجب أن نجد في الإسلام الإقرار بطبيعية الخطأ في المجتمع الإنساني، وبمكانة المخطئ في منظار الشريعة، حينما يلتمس طريقه إلى الحق عبر مسالك الخطيئة، ولعلّ في حديث الرسول محمد صلى الله عليه وسل: « كلّ بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوّابون » (14) إشارة إلى هذا المعنى.

الرؤية بوصفها معرفة حدسية، تجعل الإنسان أكثر تعلّقا بهدفه، وأكثر قوّة، وصبرا على تجاوز المحن والمعيقات، لأنّ الغاية التي تؤطّرها رؤية هادفة، و خيال مبدع يسترخص الإنسان من أجلها كلّ ما دونها في سبيل تحققّها، والثقافة العربية، بوصفها تراكما لذهنية تواكلية، ترجع كل قضاياها المصيرية إلى الغيب، مسوّغة بمنطق القضاء والقدر كل نكساتها وهزائمها، غير قادرة على خلق رؤية محركة، مغرية، مشجعة على تتبّع المجهول ، واكتشاف ما يمكن اكتشافه لإرواء شغف النّفس التواقة إلى البحث، والاستقصاء.

في منظور أدونيس أنّ حركة التطوّر في المجتمعات العربية يحكمها قانون السلف؛ أي الاحتكام إلى سقف ما وصل إليه الأجداد من حركة في مسلك التاريخ، وجعله مرجعية لحركة الحياة، في حين أنّ ما حقّقه السلف من إنجاز ، إنّما يتواءم ويتجانس مع طبيعة واقعهم، ورهانات عصرهم التي، بكل تأكيد، تختلف عن واقع المجتمعات العربية اليوم، وعن طبيعة الإشكالات المطروحة أمامهم، ولعلّ تشبّث الإنسان العربي بماضيه ، وذوبان شخصيته فيه، هو ما يعبّر عنه قول أبي العلاء بن عمر:« إنّما نحن، في من مضى، كبقل في أصول نخل طوال. » (15).

3-الحرية:

الحريّة في ثقافة أدونيس النّقدية قوّة ذاتية، لا تعطى، وهي محرّك كلّ تحوّل،تنعكس على الروح ، على الذات، على اللغة، على البصيرة، فهي البصيرة المنبثقة من رحم العدم، وهي تمثل لبّ الإشكال في تاريخ الإنسان العربي، قبل الإسلام وبعده، و باستثناء بعض الفترات في تاريخ الإنسان العربي، التي يمكن وصفها بالتحرّر (الشعراء الصعاليك)(التجديد الشعري العربي عند أبي تمام)،(الفكر الاعتزالي)، فإن تاريخ الثقافة العربية، هو تاريخ تابعية، واحتذاء، تاريخ تكريس النموذج الأوحد، الأصل على حساب الفرع، تاريخ النّص، في مقابل قراءة النص، تاريخ الجماعة ، وما اتفّقت عليه في مقابل الفرد وقدرته على إعادة صياغة منطق الجماعة، تاريخ السلف في مقابل الخلف، وبالجملة فإنّ مقولة الحريّة بمعناها الفلسفي لم تتبلور بالكيفية التي تجعلها علامة أساسية في المساق التاريخي للإنسان العربي.

يكتشف الإنسان عالمه باللّغة، وهو كائن يسكن اللغة بتعبير"هيدجر"، واللغة حاملة للفكر، ومعنى هذا أنّ حريّة اللّغة مسلك آمن لإيصال الفكر المتحرّر، وفي منظور أدونيس، لا سيّما، في دراسته" الثابت والمتحوّل بحث في الإبداع والإتباع عند العرب" يتحدّد مفهوم حرية اللغة في قدرتها على التجاوز، وخرق مستويات الدلالة في اللغة التقليدية، وفي قدرتها على تنوير الوعي وتثويره في الوقت نفسه، وفي قدرتها في إعادة صياغة أسئلة مفهومة، متزامنة مع طبيعة اللّحظة الراهنة، مستوعبة للقلق والتوتّر، وفي قدرتها على امتطاء المستحيل، وتحويله إلى دلالات ممكنة، وفي قدرتها على التكثّر، أن تكون متعدّدة، خصبة، منتجة للعلامات الدالة على الطريق، وفي قدرتها أن تكون غامضة وواضحة في الوقت ذاته؛ أن تكون الكلّ الإنساني،وقادرة على بناء هويّة الشاعر، هوية الإنسان، أن تكون ذات طبيعة استفهامية، ابتكارية غير استرجاعية، متفرّدة غير تكرارية.

اللغة المتحرّرة، هنا، في هذا السياق هي اللّغة التي لا تطابق بين الدال والمدلول، لغة تستوعب منطق المنبثق، الجديد، المحتمل، المستمر، لغة لا تقوم على نهائية المعنى، ومحدوديته، لأنّ « أعمالنا، أفكارنا تفسيراتنا كلّها لا نهائية وغير حاسمة، اللانهائي وغير الحاسم يصنعان عالمنا » (16).

اللغة بهذا التحديد، هو ما يدعو إليه أدونيس، ويعوّل على كفاءتها، وطاقتها الحيّة، إن على صعيد الإبداع أو الفكر، في تغيير منظومة القيّم القديمة، المتوغّلة في موقف السلف من اللّغة وفي وظيفتها، وهو

موقف ينبع إمّا من نظرة تقديس للغة الخطاب الجاهلي، وإمّا من قناعة دينية محضة، تجعل من وظيفة اللّغة الأساسية وظيفية أخلاقية محضة، لا تخرج عن نسق منظومة القيم والمبادئ التي جاء بها الإسلام.

الحرية اللغوية، جزء لا يتجزأ من حرية الإنسان، فهي أداة التشكيك، والنقد ، والرفض، والتجاوز، والخرق لما أتفق عليه من قوانين الصيّاغة والخطاب، أن يمتلك الإنسان حرية لغوية، معناه أن ينتج خطابا جديدا، غير مكرّر، أن يقول اللحظة، بكلمة موجزة أن ينشئ خطابا جذريا.

أدونيس في نقده الحضاري للمجتمعات العربية، إنّما يركز على ضرورة تبنّي لغة جديدة، لا تتشبّث بالأرض ولا تنبع من السماء، و إنّما هي لغة تشقّ ممرا ثالثا ، يصنع الانسجام بين الأرض والسماء؛ تعرب عن واقع الإنسان ولا تتجاوزه، ولكن وهي تؤدي هذا الدّور، فهي تفتح وعيه على الأفق الرحب، على الغيب، على المستقبل، وهو إذ يطالب بذلك، فهو يدعو إلى فكر حداثي، فكر« يمثل نزعة نقدية جذرية، لم تشهد الفلسفة الأوروبية مثلها منذ" بوجينيس" والفلاسفة الحواريين، نزعة تشكّك في كل شيئ، بدءا بالتّراث الفكري الأوروبي، وصولا إلى الحضارة الغربية القائمة بكليّتها » (17).

ثالثا-الأداة المصطلحية في نقد أدونيس:

يمارس أدونيس خطابه النقدي، بدلالات متوغلة وأصيلة في الخطاب الحداثي، وما بعد الحداثي الغربي، وهو إذ يطرح فكرة تحطيم البنية اللاهوتية في المجتمعات العربية، ينقلنا إلى فكرة موت الإله عند "نيتشة" وما ترتب عنه في تاريخ الفكر الغربي من تحويل النظر إلى الواقع و إلى الإنسان بوصفه المشكلة الكبرى، ما أدى إلى الاهتمام بالبحث في العلوم الإنسانية، وجعلها غاية إستراتيجية في الثقافة الغربية، بوصفها المسلك العلمي لمقاربة ظاهرة الإنسان، و معالجة أهم إشكالاته، و أداة للقضاء على الدجل الديني ، وكما كان موت الإله في الفلسفة الغربية بمثابة إعادة الاعتبار إلى الإنسان من خلال عودته إلى ذاته، فإن أدونيس يسعى إلى إعادة الإنسان العربي إلى ذاته، وجعله ينظر من حوله، حتى يتبيّن وضعه في مجرى التاريخ.

المسلك لتحقيق هذه الغاية يتمثل في خلخلة الأرضية اللاهوتية التي ثبّتت زاوية النظر والتفكير لدى الإنسان العربي في اتجاه السماء، باعتبارها مصدر الحقيقة المطلقة ومصدر الوحي الذي اكتمل، محوّلة نظره عن واقعه المادي، مانعة أياه عن المضي إلى مستقبله، مغيبة له في ساحة التاريخ.

تشتغل ذهنية العربي، في منظور أدونيس، بموجب مسلّمة عقلية مؤداها أن« المعاني الصحيحة ثابتة في القرآن والسنّة، فهي الأصول الثابتة، والمعاني الصحيحة ثابتة في الشعر القديم، ولولا ذاك، لما أمكن اتخاذه حجة ودليلا، ولهذا ما لا أصل له في الدين والسنة باطل في الدين، وما لا أصل له في الجاهلية، باطل هو أيضا في الشعر » (18). ويترتبّ عن هذا الحال، وجوب دحض هذه الخلفية الدينية، باعتبارها مصدر المشكلة، وجوهر الأزمة في تاريخ العقل العربي، ولعلّ هذا ما جعل مقولة موت الإله عند" نيتشة"

تستعار في طروحات أدونيس، ربما لاقتناعه بأن الشّروط التي تحررّ بموجبها الإنسان الغربي من سلطة الدين المسيحي، ومن مغالطات الكنيسة في حقبة القرون الوسطى، يمكن أن تكون صالحة لتحرّر العقل العربي من الفكر الديني الأحادي، ومن أثر الثقافة القديمة(الشعر الجاهلي) في اللاوعي العربي، باعتبار أنّ « الجاهلية شرع أدبي، وكما أنّه إذا تعارض الشرع والعقل، أي الإبداع وجب تقديم الشرع، فإنّه يجب تقديم الشّعر الجاهلي على الشعر الذي يأتي بعده، أيّا كان، و أيا كان زمانه ومكانه » (19) .

تأسيسا على ما سبق، يمكن أن نستنبط مجموعة من الدلالات المركزية التي ترفد موقف ونقد ادونيس لطبيعة الموروث الحضاري العربي، لعلّ أهمها:

- الصياغة: و تعني أنّ المنحى الثبوتي يقوم أساسا على إعادة صياغة الشكل الذي يكون امتدادا للأول.

- الاستعادة: تمثل أسلوب وغاية المنحى الثبوتي في تعامله مع الفن والفكر، الفقه، الاجتهاد، وملخص دلالة هذا المصطلح،أن ليس ثمّة أبدع مما أبدع السلف الصالح.

- التكرارية: مصطلح يحيل على صفة النشاط الذي يميز المنحى الثبوتي، إذ أن سقف الغاية في هذا الاتجاه أن تتكرر وتعاد لحظة السلف، بوصفه القدوة المثلى التي يتوجب الاقتداء بها في كل شيئ، لما تمثّله من إرادة إلهية .

- الاتباعية: تدل في سياق الخطاب النقدي الأدونيسي على مسلك الصالحين، والتابعين، وتابعي التابعين، وهي بذلك، تدل على النهج لبلوغ الغاية.

- الوصل: يحيل هذا المصطلح في خطاب ادونيس، على أهم ميزة أساسية في منحى الثبات وهو تعلّق الذهنية العربية بالنموذج الأصلي.

- الواحدية: القراءة المطابقة لدلالة النص الأصلي، والفهم الأوحد للشرع .

أما على صعيد منحى التحوّل، فيمكننا أن نستشف جملة من الدلالات تؤطّر خطاب أدونيس ضمن سياق الفكر النقدي الحداثي، لعلّ أهمّها:

- الفصل: يحيل على دلالة التجاوز

- التحوّل: يدل على التطور، والتحرر من وضع التابعية إلى وضع المبادرة ، والاكتشاف.

نستخلص مما سبق أنّ خطاب أدونيس النقدي يستهدف، تحرير العقل العربي من تبعيته للخطاب الديني، القائم على مسلّمات ثابتة، توارثها الخلف عن السلف، بنوع من العمى الفكري، الذي يعيق صياغة مشاريع نهضوية تعيد للإنسان كرامته ومعناه المرتبط بالحركة والبحث والاستقصاء.

لبّ الإشكالية المطروحة في راهن الإنسان العربي تتمثل في طبيعة العلاقة بين الأصل والفرع، بين الأصالة والمعاصرة،وهي علاقة قائمة على التضاد والتناقض، لا على الجدل والتفاعل، من منطلق أنّ الأصالة ذات منحى ثبوتي، والمعاصرة ذات منحى تحوّلي، فهما قوّتان متناقضتان، تعيقان حركة التقدم نحو الأمام، ما يجعل أسلوب فك الارتباط ضرورة منهجية للانطلاق.

الموروث العربي يسوّغ العنف، من منطلق أنه يمثّل الحقّ الذي يتطابق مع الإرادة الإلهية، ويترتّب عن ذلك أن أيّ شكل من أشكال المعارضة التي تقف في وجهه، تمثّل خطرا على إرادة الله يستلزم محاربتها.

التحوّل يستدعي الشك، والبحث، والتساؤل، ومعنى ذلك، أن خروج الإنسان العربي من التيه،لا يتأتّى إلا بإعادة النّظر في طبيعة النّسق الثقافي الذي يحكمه، يتفتيت كل جزئياته، و إعادة بنائها في ضوء أسئلة الراهن ومتطلّباته، باعتباره هو الفضاء الذي يحدّد الهوية الحقيقة للإنسان ، لأن الإنسان محسوب على حاضره، لا على ماضيه.

الارتداد، صفة الفكر العربي، وطبيعة الدّافع الذي يشتغل بموجبه، وهو ميزة لا تقود العقل إلى المستقبل في اتجاه ما يجهله، بقدر ما يقوده إلى الماضي لاستعادته.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

الحديث الشريف

1- أبو القاسم عماد الدين عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله البكري الصقلي المالكي، الأنوار في علم الأسرار 2- ومقامات الأبرار، ت: أحمد فريد المزيدي، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان1971.

3- أحمد بن علي الخطيب البغدادي، موضح أوهام الجمع والتفريق، (13-1/12)، دار المعرفة بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1987.

4- أدونيس الآثار الكاملة، المجلد الأول، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، 1996.

5- أدونيس، الثابت والمتحوّل، بحث في الإبداع والاتباع عند العرب، الجزء الأول، دار الساقي،الطبعة السابعة، 1994.

6- أدونيس، مقدمة الشعر العربي، دار العودة للنشر، الطبعة الرابعة ،1983.

7- خالدة سعيد، حركية الإبداع، دراسات في الأدب العربي الحديث، دار العودة،الطبعة الثانية، 1982.

8- فريدريتش نيتشة، "هكذا تكلم زرادشت"، ترجمة عن الألمانية، علي مصباح، منشورات الجمل، كولونيا(ألمانيا)، بغداد 2007.

9- محمد بنيس ، الاسم العربي الجريح، بيروت: دار العودة، 1980.

10- هشام شرابي، النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى بيروت 1990.

(11)- Ihab Hassan « pluralism Postmodern Perspective Source: Critical Inquiry, Vol. 12, No. 3 (Spring, 1986), pp. 503-520 Published by: The University of Chicago Press Stable URL: http://www.jstor.org/stable/1343539 .

الإحالات والهوامش:

(*)البقرة: 170

(**):الحجرات:13

(1): هشام شرابي، النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة 1، بيروت 1990 ص: 93

(2):أدونيس، الثابت والمتحوّل، بحث في الإبداع والاتباع عند العرب ، الجزء الأول، دار الساقي،ط7، 1994ص: 107.

(3):نفسه، ص: 152

(4): خالدة سعيد، حركية الإبداع، دراسات في الأدب العربي الحديث، دار العودة،ط2 ، 1982 ،ص:40

(5): محمد بنيس ، الاسم العربي الجريح، بيروت: دار العودة، 1980، ص: 7-9

(6): أدونييس، الثابت والمتحوّل، بحث في الإبداع و الاتباع عند العرب،.ص: 144

(7):نفسه، ص:129

(8): نفسه، ص: 131

(9):هشام شرابي، النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين،مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى بيروت 1990، ص:97

10: أبو القاسم عماد الدين عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله البكري الصقلي المالكي، الانوار في علم الأسرار ومقامات الأبرار، ت: أحمد فريد المزيدي، دار الكتاب العلمية، بيروت لبنان 1971، ص: 197

(11):أدونيس، مقدمة الشعر العربي، دار العودة للنشر،ط4 ،1983ص: 52

(12): فريدريتش نيتشة، "هكذا تكلم زرادشت"، ترجمة عن الألمانية، علي صباح، منشورات الجمل ، كولونيا(ألمانيا) ، بغداد 2007ص: 412

(13): أدونيس الآثار الكاملة، المجلد الأول ، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، 1996. ص: 263

(14): حديث ضعيف ، رواه الترمذي (2499) .وابن ماجه (4251) .والدارمي (2730) .وأحمد في (المسند) (198/3) وفي (الزهد) (ص96) .وعبد بن حميد في (المنتخب) (1197 تحقيقي) وابن أبى شيبة في (المصنف) (62/7) .وأبو يعلى (2922) .والحاكم (244/4) والروياني في (مسنده) (1366) .والبيهقى في (الشعب) (420/5) .وابن حبان في (المجروحين) (111/2) .وابن عدى في (الكامل) (1850/5) .والمزي في (تهذيب الكمال) (131/21) .والشجري في " الأمالى " (198/1) .

(15): أحمد بن علي الخطيب البغدادي، موضح أوهام الجمع والتفريق، (13-1/12)، دار المعرفة بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1987.

(16)- Ihab Hassan « pluralism Postmodern Perspective Source: Critical Inquiry, Vol. 12, No. 3 (Spring, 10 1986), pp. 503-520 Published by: The University of Chicago Press Stable URL: http://www.jstor.org/stable/1343539

(17): هشام شرابي، النقد الحضاري للمجتمعات العربية، في نهاية القرن العشرين،ص: 95

(18): أدونيس، الثابت والمتحوّل، بحث في الإبداع و الإتباع عند العرب،.ص:109

(19:) نفسه، ص:108